تجلّيات سقوط المدن الأندلسية في الشعر الأندلسي من (456هـ - نهاية القرن السابع الهجري)

*آمنة سليمان البدوي**

ملخص

شكّل سقوط المدن الأندلسية اضطراباً وقلقاً كبيرين لدى أهلها، بسبب ما ترتّب عليه من آثار نفسية واقتصادية صعبة، من شدّة الغلاء، ووقوع النهب، ونفاد الأقوات، واضطرار النّاس لأكل الجيف فانتشرت الأوبئة، وازدادت موجات الهجرة والنّزوح طلباً للأمان، وبدأت موجات الهجرة الدّاخليّة بالازدياد، وبخاصّة نحو مملكة غرناطة، فقد كان سكان المدينة التي تسقط يرتحلون إلى مدينة أخرى، فإذا سقطت ارتحلوا إلى غيرها، وكأنّهم يغالبون الرّحيل النهائي عن الأندلس. وتتناول هذه الدّراسة التشكيل اللغوي في الشعر الذي عبّر عن عمق المأساة في نفوس الشعراء، وذلك على المستوى النحوي من حيث الجمل الفعلية المؤكدة والمنفية والاستفهامية، والمستوى الصرفي، وعلى المستوى الدّلالي، والبناء الأسلوبي، والتكوين البديعي، والبناء التصويري (ينابيع الصورة وأنماطها)، والبناء الموسيقي (الأوزان والقوافي والموسيقا الدّاخلية).

الكلمات الدالة: المدن الأندلسية، سقوط، ارتحال.

المقدمـة

تعنى هذه الدراسة بالبعد النفسي الداخلي للشعراء ووصفهم لمشاعر النّاس في فترة سقوط المدن الأندلسية، وترصد الخوف والقلق على الوطن وعلى الدّين وعلى الأعراض، وانتقت شعراً يرصد هذه الظاهرة منذ القرن الخامس الهجري الذي بدأ بسقوط طليطلة (Tuledo) بيد الإسبان (478هـ/1085م)، وكان قد سبقها سقوط بربشتر (Barbastro) على يد النورمـان (456هـ/1036م)، لكنها استعيدت، بينما لم تعد طليطلة وبقيت بيد الإسبان إلى نهاية سقوط الأندلس كاملة، وكان لابدّ قبل رصد القلق والخوف في النفوس، من توطئة ومدخل تاريخي للتنكيل الذي وقع لأهلها، وعرض لأحوال أهلها الاقتصادية والاجتماعية، والتي كانت سبباً في النزوح عنها، وفي وطن النزوح خارج الأندلس أو في مصر والشام، تبدأ معاناة من نوع جديد، رصدتها الدّراسة التاريخية وانعكست في كلمات الشعراء ومعانيهم وصورهم، وتبدو المفارقات واضحة في استنطاق الجمادت، والمفارقات في وصف المدن قبل السقوط وبعده، وقد حملتها الألفاظ والصور والمعاني، لأنّ ما حصل لا يكاد يصدّق، فكان هذا التحوّل الفني، مرتبطاً بالتحوّلات السياسية والتاريخية.

توطئـة

تبدلت الأوضاع السياسية في الأندلس بعد مراحل من الضعف السّياسي الذي بدأ منذ عصر ملوك الطّوائف، لاسيّما بعد سقوط طليطلة (Tuledo) (478هـ/1085م)، وقد كان له أثر كبير في النفوس، بيد أنّ موقعة الزلاّقة (479هـ/1086) التي حققت انتصارا للمسلمين بعد جواز يوسف بن تاشفين أمير المرابطين من المغرب إلى الأندلس أخرت سقوطها، إلاّ أنّ موقعة العقاب (609هـ/1212م) زمن الموحّدين –التي هزم فيها المسلمون– كانت نذير انحلال الجبهة الأندلسيّة، وأدّت إلى تتابع سقوط المدن الأندلسيّة بصورة مطّردة، فلم تأت نهاية القرن السّابع الهجري، إلاّ وقد سقطت معظم مدن الأندلس[1]؛ فقد استولى الإسبان على تطيلة (Tudela) (612هـ/1215م، وعلى لوشة (loja) 622هـ/1225م)، وماردة (Merida) 626هـ/1229م، وميورقة (Mallorca) 627هـ/1230م، وأبّذة (Ubeda) 631هـ/1233م، ثم تلتها قرطبة (Cordoba) 633هـ/1235م، وبيّاسة (baeza) وإستجّة (Ecija) والمُدور (Almodovar) 634هـ/1236م، وبلنسية (Valencia) 636هـ/1238م، وشاطبة (Jativa) ودانية (Denia) 638هـ/1240م، ولقنت (Alicante) وأوريولة (Orihuela) وقرطاجنة (Cartagena) 640هـ/1242م، ومرسية (Murcia) 641هـ/1243م، وجيان (Jaen) 644هـ/1246م، وإشبيلية (Sevilla) 646هـ/1248م، واجتاحت غرب الأندلس في الوقت

* قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأردنية. تاريخ استلام البحث 2011/10/6، وتاريخ قبوله 2012/6/27.

© 2013 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

نفسه موجة مماثلة للغزو النّصراني، فسقطت بطليوس (Badajoz) وشنتمرية الغرب (Santa) Mariade de Algarve 647هـ/1249م، وولبة وأونبة (Huelva) وشلب (Silves) وطلبيرة (Talavera) (659هـ/1260م)، وسقطت قادس (Cadiz)، وتلتها شريش (Jerez) 662هـ/1263م[2]، وهكذا...

ومن المعروف أنّ الإسبان لم يكتفوا باحتلال المدن والاستيلاء عليها، بل رتبوا على ذلك إجراءات قاسية أخرى، فحينما دخل الأذفونش ميورقة (627هـ/1230م) –على سبيل المثال – جرى القتال في الشوارع والميادين، وقُتِل الكثير من أهلها، وطُرِد الآخرون، واغتصبت أراضيها بطريق الإقطاع، وانتهى الأمر بخضوعها[3].

وحينما استولوا على أبّذة (631هـ/1234م) قتلوا أهلها وسَبَوهم، واستلبوا أموالها[4]، ثم تلتها قرطبة (633هـ/1236م) التي استبسل أهلها في الدّفاع عنها[5]، وصمدت المدينة للحصار ستة أشهر، وهو وقت كاف لوصول قوة يوسف بن هود الذي يعسكر بقواته غير بعيد عنها، ولم يحاول الاستنجاد بابن الأحمر، لكنّها قدّمت هديّة سائغة للأعداء[6]، فحلّ اليأس بأهلها مكان القوة والبسالة، واشتدت الحال عليها حتّى نفدت أقواتها وجعلت حصناً للفرنج[7].

كما ضاعف الفرنج تضييقهم على بلنسية وإرهاقها[8]، يضربون أسوارها وأبراجها، وقد طال عليها الحصار واشتدّت وطأته، وبلغ بأهلها الإعياء مبلغاً حتى اضطرّوا إلى تسليمها (636هـ/1239م)[9]. ولم يلتزم الفرنج بما تعهّدوا به في معاهدة التّسليم بعدم التعرّض للمسلمين؛ إذ يروي أحد مؤرخيهم معترفاً بهذه الحقيقة، فيقول: "ممّا يبعث على الأسف الشّديد والعجب أن تقرّر هذه الحقيقة من أن الإسبان قليلو العهد والذّمام، غدّارون لا يرحمون الضعيف، ولا يغيثون اللاّجئ، وأنّهم مجرّدون من كل مثل إنسانيّة، ولذلك فإنّهم لم يلتزموا بالوفاء بما تعهّدوا به في معاهدة تسليم بلنسية، فحالاً نقضوا كلّ ما فيها من العهود، وبدأوا يعاملون الضعفاء بأشدّ ضروب الانتقام، وانهمكوا بسفك الدماء"[10].

هذه أوضاعٌ سادت في بعض المدن في أثناء حصارها وسقوطها، لما ترتّب عليها من آثار اقتصادية صعبة، من شدّة الغلاء ووقوع النهب ونفاد الأقوات، واضطر النّاس لأكل الجيف وانتشار الأوبئة[11]، وازدادت موجات الهجرة والنّزوح طلباً للأمان، فقد بدأت موجات الهجرة الدّاخليّة تزداد وبخاصّة نحو مملكة غرناطة،فقد كان سكان المدينة التي تسقط يرتحلون إلى مدينة أخرى، فإذا سقطت ارتحلوا إلى غيرها، وكأنّهم يغالبون الرّحيل النهائي عن الأندلس، حتى تجمّع الكثير منهم في غرناطة، ولم تتّسع غرناطة لكلّ هؤلاء المهاجرين، فكان لابدّ من توجه المسلمين خارج الأندلس، فارتحلوا إلى المغرب العربي والمشرق الإسلامي (مصر والشّام والعراق)، لكنّ التوجّه للعراق كان أقلّ قياساً بمصر والشّام، وذلك نتيجة للاضطرابات والأوضاع غير المستقرّة فيه.

وسنتناول في هذه الدراسة القلق والخوف اللذين عاشهما النّاس كما صوّرهما الشّعر، وذلك في اتّجاهين: الأول عند حصار المدن وسقوطها. والثّاني بعد الارتحال عن الأندلس، ومدى انعكاس تجربتهم الدّاخلية على سلوكاتهم في الموطن الجديد.

الاتّجاه الأوّل:

كان سقوط المدن وحصارها سبباً في الحزن والغضب والقلق والاضطراب في المشاعر، لما سببه الأعداء من رعب مع جبن أهلها، ولم يراعوا إلاًّ ولا ذمة بالأطفال والنساء، يقول الفقيه الزاهد ابن العسال (ت 487هـ/1094م) حينما استولى النورمان على بربشتر (45هـ/1036م)[12]:

ولقد رمانا المشركون بأسْهُمٍ لم تُخطِ لكن شأنُها الإصماءُ
هتكوا بخيلِهِمُ قصورَ حريمِها لم يبقَ لا جبلٌ ولا بَطحاءُ
جاسوا خلالَ ديارِهِمْ فلهم بها في كلِّ يوم غارةٌ شعــواءُ
ماتت قلوبُ المسلمين برُعبِهِم فحُماتُنا في حربهِم جُبَناءُ
كم موضعٍ غنِموه لم يُرحَم به طفلٌ ولا شَيخٌ ولا عَـذْراء

وقد كان سقوط طليطلة (478هـ/1085م) صدمة قوية، فقد أخذها العدو بعد حصار شديد من يد القادر بن المأمون يحيى بن ذي النون[13]، ومن أعظم نتائجه خطراً سقوط دول الطوائف واندثارها على يد المرابطين، فقد جاء سقوط طليطلة نتيجة الضعف والخلافات بين دول الطوائف الذين استعانوا بالفرنج لمحاربة بعضهم، وقد وجد الأذفونش (ألفونسو السادس) بذلك فرصة للتدخل في شؤون ممالكهم والاشتطاط في الضرائب وإذلالهم. ونسمع صوت ابن العسّال الزاهد شاعر طليطلة مرة أخرى في هذه الكارثة، فطليطلة وطنه ومسقط رأسه، فبدل أن يبكي ماحل ببلده، نراه يدعو الأندلسيين إلى القهقرى والانهزام والارتحال من بلدهم، وقد يكون هذا اللون السلبي مبالغة في التّذكير والتنبيه[14]، يقول[15]:

يـا أهلَ أندلسٍ حُثّــوا مطيّـكُمُ
فما المُقامُ بـها إلاّ من الغَلَـطِ
النّوب ينــسِلُ من أطرافِهِ وأرى
ثوبَ الجزيرةِ منسولاً من الوَسَطِ

ونحــنُ بينَ عـدوٍّ لا يفـارِقنـــا
كيفَ الحياةُ مع الحيّاتِ في سَفَطِ

وممّا يدلّل على هذه الظاهرة الانهزاميّة، ما يتبدّى عند أبي القاسم بن الخيّاط الفقيه (ت ق5هـ/ 11م) "لمّا أخذ النّصارى طليطلة، وقد حلق رأسه وشدّ الزنّار، وقال له أحد أصحابه في ذلك: أين عقلك؟! فقال: ما فعلت ذلك إلاّ بعد أن كمل عقلي"[16]، وأنشد أبياتاً منها[17]:

تلــوّن كالحــرباءِ حين تـلوّنِ وأبصَرَ دنياهُ بملءِ جفونِـهِ
وكلٌّ إلى الرّحمن يومي وجهَهُ ويذكُـرُهُ في جـهرِهِ ويقيــنِهِ
ولو أنّ ديناً كانَ نفياً لخالقـي لما كنتُ يوماً داخلاً في فنونِهِ

ويبدو من أبيات ابن العسّال وابن الخيّاط، أنّهما لم يستوعبا هول الصدمة، ولعلّها المعاناة اليائسة عن الفعل والمواجهة، فكأنّ الثّوب إذا نسل من الوسط انتهى أمره، فهل كان السقوط الذي تلا سقوط طليطلة فيما بعد من التداعيات السلبيّة التي عبر عنها الشّعر في نفوس النّاس، أم هي نبوءة الشعر التي تسبق الأحداث العظيمة.

لقد شعر المسلمون بعجزهم أمام التحدّي الذي يتهددهم، وقد تكون الاستجابة الطبيعية في مثل هذه الظروف، الدعوة للتحدّي، والاستنجاد بالمسلمين، إلاّ أنّ الخوف، وهول الصدمة، أفقدت الشعراء الأمل، ودعتهم لتوجيه الدعوة اليائسة للهرب[18].

وقد كانت الدّموع وسيلة للتخفيف من المعاناة، يقول القاضي أبو المطرّف بن عميرة (ت 658هـ/1259م) أحد شعراء بلنسية عند سقوطها متسائلاً بحسرة وأسف[19]:

ما بالُ دمعِكَ لايني مدرارُهُ أم ما لِقَلبِكَ لا يَقَرُّ قَــرارُهُ؟
ألِلوعةٍ بينَ الضُّلوعِ لظاعِنٍ ســارت ركائبُهُ وشطَّت دارُهُ؟
أم للشّباب تقادمت أوطانه بعد الدنوّ وأخلفت أوطــارُهُ؟
أم للزّمان أتى بخطبٍ فادحٍ من مثل حادثِهِ خلت أعصارُهُ؟
بحرٌ من الأشجانِ عبَّ عبابُهُ وارتجَّ مابين الحشى زخّــارُهُ؟

الشاعر يشحن أبياته بالمساءلة المتكررة، فالخطب كبير والقلب كسير مضطرب، ويأتي بالألفاظ المليئة بحرف الراء الموحي بالاضطراب القوي (قرّ قراره، مدرارُهُ)

ويقول شاعر مجهول، عند سقوط طليطلة الذي قصم الظّهور، وذهب معه السرور وأعقب الحسرة والأسى[20]:

لثكلِكِ كيف تبتسـمُ الثّغــورُ سروراً بعدما سُـبيت ثغورُ؟
أما وأبي مُصابٌ هــدَّ منــه ثبيرُ الدّينِ فاتّصلَ الثّبــورُ
ترى في الدّهرِ مسروراً بعيشٍ مضى عنّا لطيّتِهِ السّــرورُ

فهذا التقديم للاسم "لثكلك" فيه الإحساس الشديد بالفقد، فقد تملّك معنى الفقد مشاعره، ممّا أثار استنكار الشاعر للابتسام، لانعدام معنى السّرور بعد سبي المدن والثغور، فجاء معنى الثكل متقدّما في بيت الشاعر، لتقدّم هذا المعنى في نفسه فـ" الكَلِم تترتّب في النطق بسبب ترتّب معانيها في النّفس"[21].

ومن أسباب هذه الآلام والأشجان، الخوف والقلق على الدّين، وقد أخذ صوراً عديدة، منها استبدال الكفر بالإسلام، بعد أن خانه أنصاره وتخاذلوا عن نصرته[22]:

أمّا بلنسيةٌ فمثــوى كافِــرٍ حفّت به في عقرها كفّــارُهُ
زرعٌ من المكروهِ حلَّ حصادُهُ بين العدى وغداة لجَّ حصارُهُ
وعزيمة للشّركِ جعجَعَ بالهدى أنصارُها إذ خانهُ أنصــارُهُ
قد كانَ يشرِقُ بالهدايةِ ليــلُهُ فالآنَ أظلَمَ بالظّلامِ نَهــارُهُ

ومنها تحويل المساجد كنائس، وابتئاس الإيمان بعد أن حلّ الكفر مكانه، يقول ابن الأبّار القضاعي (ت 658هـ/1259م) في سينيّته[23]:

مدائنُ حلَّها الإشراكُ مبتَسِماً جَذلانَ وارتحلَ الإيمانُ مبتَئِسا
يااللمساجِدِ عادت للعدى بِيَعاً وللندا يَرى أثنــاءَها جَرَســا

وتغدو المحاريب والمنابر تبكي وترثي لما لحقها من تدنيس، وقد خلت ديار الإسلام من الإيمان وعمّرت بالكفر، وهي صورة فيها مفارقة، فالعمارة إيجابية لكنّها في هذا الموطن ذلٌّ وانكسار حيث صارت العمارة للكفر والكافرين، يقول أبو البقاء الرّندي (ت 684هـ/1285م) في نونيّته[24]:

تبكي الحنيفيّة البيضاءُ من أسَفٍ كما بكى لفراق الإلف هيمانُ

على ديــارٍ من الإســلامِ خاليــــةٍ
قد أقفَرَت ولها بالكفرِ عُمرانُ
حيثُ المساجِدُ قد صارت كنائسَ ما
فيهنَّ إلاّ نواقيسٌ وصلبــانُ
حتّى المحاريبُ تبكي وهي جامدةٌ
حتّى المنابِرُ ترثي وهي عيدانُ

وممّا أحزن الشعراء وأقلقهم وعاث بنفوسهم، التّخريب الذي ألحقه الإسبان بمدنهم بعد أن بدَّلوا الكثير في بنائها، فقد محوا محاسنها، واستباحوا حماها، يقول ابن خفاجة (ت 542هـ/1147م) حينما سقطت بلنسية سقوطها الأول سنة (495هـ/1101م)[25]:

عاثت بساحتكِ العـــدا يادارُ ومحا محاسنكِ البلى والنّارُ
وإذا تردّدَ في جنابِكِ ناظـــرٌ طالَ اعتبارٌ فيكِ واستعبارُ
أرضٌ تقاذفت الخطوبُ بأهلِها وتمخّضت بخرابها الأقــدارُ

لقد أجاد الشاعر استخدام الألفاظ، فعاث في المدينة الأعادي، ما يحمل معنى الفوضى والإفساد، وكذلك فإن لفظة تقاذف فيها معنى الحركة الجارفة المفاجئة، وفقدان المسلمين لإرادتهم أمام هذه الخطوب الكبيرة التي تمخّضت عن خراب بلادهم وطردهم منها.

من ذلك مايقوله ابن عميرة يصف بلنسية قبل أن عاث الأعداء بها فساداً[26]:

ما كان ذاك المصرُ إلاّ جنّةً للحسنِ تجري تحتَه أنهارُهُ
طابَت بطيبِ نهارِهِ آصـــالُهُ وتعطّرت بنسيمِهِ أشجارُهُ

ولعلّ عرض حال المدن قبل سقوطها، يعطي حالة من التوازن والرّاحة وتحسّ معها أنّ الشاعر يعيش حالة الأُنس التي كانت قبل سقوط مدينته، وجاءت الكلمات تبعث على الرّاحة أفعالا مثل: طابت وتعطّرت، ففيها تشمّ رائحة الطّيب والعَرْف، أو أسماء مثل: الجنّة وما يتعلق بها من أشجار وأنهار، والحسن، والنّسيم، ففي هذه المفردات معانٍ تبعث على الاطمئنان، وتشكلّ رؤية الشّاعر لزمن ذكرياتٍ أحبّه.

ولعلَّ الخوف على الأعراض والنّساء قد شكَّل قلقاً خاصّاً، وباعثاً من بواعثِ استثارة المسلمين للنهوض للجهاد ونصرةِ الدّين، من ذلك ما يقوله أبو جعفر الوقشي البلنسي (ت574هـ/1178م)، محرّضاً يوسف بن عبدالمؤمن على الجهاد، وراسماً صورة للأندلس، ومتحسّراً لما لحق بالنّساء من ذلّ ومهانة وتبدّل حال[27]:

ويغزو أبو يعقوبَ في شنت ياقبٍ
يعيدُ عميـــــدَ الكـــافرينَ عَميدا
ويفتكُّ من أيدي الطّغاةِ نواعمـــاً
تبدّلنَ من نظمِ الحجـــولِ قيودا
وأقبلنَ في خشنِ المسوحِ وطالما
سحبنَ من الوشيِ الرّقيقِ بُرُودا
وغبَّرَ منهنَّ التّـــــرابُ ترائبـــاً
وخدَّدَ منهنَّ الهجيـــرُ خُـــدودا
ويالهفَ نفسي من معاصِمِ طفلةٍ
تجاورُ بالقدِّ الأليمِ نهـــــودا
وآهاً تمدُّ الصّوتَ منتحباً على
خلوٍّ ديارٍ لو يكونُ مفيـــــدا

ويبدو الانكسار واضحاً في صورة النساء، في تحوّل لباسهنّ من الرقّة إلى الخشونة، واستبدلت حليهنّ بالقيود، وتغبرّت الترائب النّاعمة، وتشققت الخدود الأسيلة، وتسمع منهن الآهات والنّحيب غير المجدي، فيقيّد الصوت بالألم الذي لا يزيد المرء إلاّ ألماً، وتسمع صوت الآه الذي يمتدّ، ويتردّد صداه المؤلم لخلوّ المكان ووحشته من ساكنيه.

وهناك صورة أخرى فيها ذلٌّ وقهر للنساء، يصوّرها أبو البقاء الرّندي[28]:

وطفلةٍ مثلُ حسنِ الشّمسِ إذ طَلَعت
كأنَّمـــا هـــي ياقـــوتٌ ومَرجـــانُ
يقـــودُها العلجُ للمكـــروهِ مُكرَهـــةً
والعينُ باكيـــــةٌ والقـــلبُ حيـــرانُ
لمثلِ هذا يذوب القـــــلبُ من كَمَدٍ
إن كـانَ في القلبِ إسلامٌ وإيمـــانُ

وتبدو المفارقة في الصورة؛ بين جمال هذه الفتاة وبراءتها وطهرها، وبين صورة العلج الذي يقودها مرغمة للفاحشة، وهي صورة تدمي القلب وتثير الغيرة والحميّة، مع العجز عن حمايتها فيذوب القلب حسرة وكمداً، وقد كرّر الشاعر القلب في آخر بيتين ثلاث مرات، وكأنّنا نسمع صوت وجيبه المؤلم.

لقد كان خوف أهل هذه المدن على أنفسهم وديارهم وأعراضهم – مع حالة الضعف – سبباً في عقد معاهدات إذعان مع الإسبان، الذين لا يرعون الذّمم والعهود كما أسلفنا، إذ لم يكن أمامهم من خيار آخر. وقد يتعاون بعض الحكّام المسلمون مع الإسبان فيسلّمونهم المدن، كما كان من تسليم أحمد بن محمّد بن هود مرسية، وكما كان من أخذ الإسبان جزيرة شُقُر (Alcira) (639هـ/1241م) صلحاً.

وقد كان الشّعراء يبالغون في مدح الحكّام استنهاضاً لهممهم لإنجاد المدن وتداركها قبل سقوطها، وخوفاً من استباحة الدّماء والأعراض والأموال إذا ملكها الأعداء، من ذلك إسهاب ابن

الأبّار في مدح الملك الحفصي أبي زكريّا، عند حصار بلنسية، في السينيّة المشهورة، التي يصوّر فيها معاناة المسلمين، والوحشة التي حلّت بنفوسهم، إذ يقول [29]:

أدرِكْ بِخَيْلِكَ خيــلِ اللـــــــهِ أندلُسَــا
إنَّ السَّبيلَ إلى مَنجْاتِها دَرَسـا
وهَبْ لها من عزيزِ النَّصرِ ما التمست
فلم يَزَل منكَ عزُّ النَّصر مُلتَمَسا
يا للجـــــــزيرةِ أمسى أهلُهـا جَـــزَراً
للحادثاتِ وأمسى جَدُّها تَعِسا
وفي بلنسيةٍ منهــــــــا وقرطبــــــةٍ
ما ينسِفُ النّفسَ أو ما ينزِفُ النّفَسا

ثمّ يمتدح الملك في معظم أبيات القصيدة، مسهباً ومكرّراً في المعاني، فهو المؤيّد من الله،الماضي العزيمة، الواسع التدبير، المبارك هديه، ذو البصيرة النّافذة...، ثمّ يطلب منه النّصرة ويلحّ في الطّلب حتّى يتدارك أهلها قبل سقوطها، لخوف النّاس وقلقهم ممّا خبروه من المعاناة والتنكيل إذا أُسلِمَت المدن للأعداء، يقول:

طهِّر بلادَكَ منهم إنَّهــــــم نَجَـــسٌ
ولاطهارَةَ ما لم تغسل النَّجَسا
وأوطِئِ الفيـــلَقَ الجــــرّارَ أرضَهُــــمُ
حتّى يطأطِئَ رأساً كلّ من رَأَسا
وانصُر عبيداً بأقصى شَرقِها شَرِقَت
عيونُهُم أدمُعاً تهمي زكاً وخَسا [30]

ونسمع صوت الألفاظ يتضخّم ويعلو، وكأنّنا نعيش داخل المعركة، ونرى الأعداء وقد هزموا وطاطأوا الرّؤوس. لكنّ الحفصيّين لم ينجدوا بلنسية في الوقت المناسب، ما اضطرَّ محمد بن سعد بن مردنيش صاحب شرق الأندلس إلى التّفاوض مع الملك الإسباني خايمي الأوّل على تسليم المدينة [31].

ويقول شاعر آخر مجهول في استنهاض الهمم مستصرخاً لإنقاذ الأندلس، ومستنجداً بصاحب إفريقية أبي زكريّا ابن عبد الواحد [32]:

نادتكَ أندلُـــــسُ فلـــبِّ نداءَها
واجعَل طواغيتَ الصَّليبِ فداءَها
صرخت بدعوتِكَ العليّةِ فاحبُهــا
من عاطفاتكَ ما يقي حوباءَهـا
واشدُدْ بجَلبِكَ جُردَ خيلِكَ أزرَها
تردُدْ على أعقابِهـا أرزاءَهـــا

ولعلَّ هذا الخوف والقلقَ الشّديدين، يدفعان إلى الإسهابِ في مدح الملك واستعطافه:

خضعت جبـــابرةُ المـلوك لعزّهــــه
ونضت بكفٍّ صغارها خُيَـــــــلاءَها
قبضـت يـداه على البسيطة قبضــــةً
قادت له فــــــي قِــــدِّهِ أمـــــــراءَها
كالطَّودِ في في عَصْفِ الرّياحِ وقصفِها
لا رهوَها يخشى ولا هوجـــــــــــاءَها
وســـع الزّمـــان فضاقَ عنــه جلالةً
والأرضَ طرّاً ضنكَها وفضـــــــــاءَها

ثمّ يبالغ في استعطافه، راجياً الصّفح عن تقصيره في تعداد مكرماته، مؤملاً من ذلك استجابته لنجدة الأندلس:

صفحاً جميلاً أيُّها الملكُ الرضى
عن محكماتٍ لم نُطِق إحصاءَها
تقف القـــوافي دونهـــنَّ حسيرةً
لاعيَّها تخفــى ولا إعيـــــاءَها
فلعلَّ علياكم تســـــامِحُ راجيــاً
إصغاءَها ومؤمِّلاً إغضــــاءَها

وقد كان الشعراء يرسمون صورة للأندلس أو لمدنها أمام الممدوح المستنجد به إن هبَّ الملك الممدوح لنجدتها، لحثه على المسارعة لإنقاذها، ولعلّ رسم هذه الصورة يشكّل عندهم حالة من التوازن والشّعور بالأمان الذي يخفّف من الخوف والاضطراب في نفوسهم:

جرّد ظُباكَ لمحو آثار العدى	تقتُلْ ضراغمَها وتَسبِ ظباءَها
أرسِل جوارِحَها تجِئْكَ بصَيدِها	صيداً ونادِ لطحنِها أرحـاءَها
بشرى لأندلُسٍ تحبُّ لقاءهُ	ويحبُّ في ذاتِ الإلهِ لقاءَهـا
صدقَ الرواةُ المخبرون بأنّهُ	يشفي ضناها أو يعيدُ رواءَها

ويتمنّى أبو جعفر الوقشي البلنسي أن يمدّ الله في عمره، فيرى مدينة "شنت ياقب" وقد عادت إلى ديار الإسلام، فتهدأ نفسه، ويزول قلقه، وقد انتقم الله من الفرنج الذين خربوا البلاد وقتلوا أهلها، وسبوا نساءَها، ولايخلو شعره من انفعال لايبدّده إلاّ الثأر منهم، يقول [33]:

ألا ليتَ شعري هل يمدّ ليَ المدى
فأبصرُ شملَ المشركينَ طـريدا
ويغزو أبو يعقوبَ في شنت ياقبٍ
يعيدُ عميدَ الكافرينَ عميـــــدا
ويلقي على إفرنجِهِم عبءَ كلكلٍ
فيترُكُهم فوقَ الصّعيدِ هُجــودا
يغادِرُهُم جَرحى وَقَتلى مبــرّحاً
رُكوعاً على وجهِ الفَلا وسُجودا

ويقول ابن الأبّار عندما سقطت إشبيلية، متفائلاً بتحقيق النّصر على يد المرتضى الملك التونسي، ومصوّراً ما يحلّ بالإسبان، فيبعث في النّفس الارتياح بعد القلق، ومكرّراً معاني الارتياح والانفراج وانبلاج الصّباح بعد اللّيل [34]:

أذِنَتْ أرضُ العدى بافتتاحِ ... هل وراءَ اللّيلِ غيرُ الصّباحِ
ما عَدَوا أن هيّجوا لافتراس ... وهُمُ الذُّؤبانُ، ليثَ الكفـاحِ
قَدَحوا زَندَ الوغى فاستحثّوا ... من لـه فيها معلّى القِـــداحِ
إنَّ للتوحيدِ عَزماً صحيحاً ... يُوسِعُ التّثليثَ كرَّ اكتِساحِ
وُعِدَت أندلُسٌ منه بيوَمٍ ... هي لاستقبالِهِ في ارتِيـــاحِ
كلُّ أزمٍ قبـلَهُ وانبِهـامٍ ... لانفِراجٍ بعدهُ وانّضـــاح

ونحسّ بقافية الحاء المكسورة سعي الشّاعر للراحة، وفيه مع المعاني معنى الاكتساح والإطاحة بالأعداء ما يجلب له الراحة، ليكون معها انبلاج الصباح وانزياح الهمّ.

ونرى الشعراء ينوّعون في أساليب استثارة المشاعر، وحفز الهمم، وتعبئة المشاعر، وهي أساليب ترتبط بالبعد العقائدي في الصراع بين الطرفين، فوضع الصراع في إطاره الإسلامي، يستقطب طاقات الأمة للجهاد[35].

ونلاحظ أنّ الشعراء يسعون لإزالةِ القلقِ من نفوس المسلمين، برسم صور ما يتمنّونَ تحقيقه من نصر، وإعادةِ المدن التي سلبت إلى ديارِ الإسلامِ، فيشعرون بالأمان، وتتبدّل ألفاظهم وصورهم، فتبعث في النّفس طمأنينةً وأماناً، بعد الاستصراخ والانفعال، وهنا– كما قلنا – سعي لإعادة التّوازن إلى نفوسهم. ولكنّ ما تمنّاه الشّعراء لم يتحقّق، فسقطت مدن الأندلس جميعها، باستثناء غرناطة التي تأخّر سقوطها قرنين عن مدن الأندلس الأخرى، حيث سقطت سنة (897هـ/1492م). واضطرّ الأندلسيّون للارتحال، كما بينّا، فكيف كان تأثير الموطن الجديد في نفوسهم؟

الاتّجاه الثّاني:

ارتحل الأندلسيّون عن بلادهم، نتيجة لاختلال الأوضاع السّياسيّة في الأندلس، وما عانوه من خوف وقلق، بسبب استباحة دمائهم وأراضيهم وأعراضهم، وقد ساهمت البيئات الجديدة في توجيه سلوكات المرتحلين وجهات معيّنة، فنراهم يتقرّبون إلى ذوي الشّأن من الحكّام والأمراء والقضاة والوزراء، طالبين منهم النّصرة في ديارِ غربتهم الجديدة، ورفع الضّيمَ الذي لحق بهم، فكان الملوك الأيوبيّون عند حسنِ ظنّهم، كما يقول أبو الخطّاب بن دحية (ت634هـ/1236م) أحد الشّعراء المرتحلين، في امتداحه الملك الكامل بن العادل الأيّوبي[36]:

شجَتْني شَواجٍ في الغُصونِ سَواجِعُ
ففاضَت هــوامٍ للجُفــونِ هَوامِعُ
ولا حاكِمٌ أرضــاهُ بيني وبينَهـــا
سوى حاكِمٍ دهــري له اليَومَ طائِعُ
يدافِعُ عنّـــي الضّيــمَ قائِمُ سيفِهِ
إذا عــزَّ من للضّيمِ عنّي يُدافِعُ
هو الكامِلُ الأوصافِ والملِكُ الذي
تشيرُ إليهِ بالكَمـــالِ الأَصـابِعُ
وبيضُ أياديهِ الكريمةِ في الورى
قلائِدُ في الأعناقِ وهي الصّنائِعُ

نلاحظ استخدام الشاعر معاني الاستعطاف، لحثّ الملك على حمايته في ديار الغربة، ويكرر الألفاظ بعينها (يدافع، يدافع) و(الضيم، للضيم)، أو بالاشتقاق (شجتني، شواجٍ) و(الكامل، والكمال)، وربما كان سعي الشاعر للتقريب بينه وبين الممدوح، دعا إلى استخدام هذه الألفاظ المتقاربة المتجاوبة لفظاً ومعنىً، كما لا ننسى أنّ ذلك يشكّل نوعاً من التزيين اللفظي ويعطي موسيقى خاصّة، وبخاصّة أنّ ما يقدّم للملك يستوجب مثل هذا التزويق والتّجميل.

وقد كان ملوك الأيوبيين يحسنون معاملة العلماء لا سيّما علماء المغرب، وقد حظي ابن دحية بمكانةٍ خاصّة عند الأيوبيين، فقرّبوا مكانه، وجمعوا له علماء الحديث، وكان الملك الكامل قد بنى له دار الحديث الكامليّة بين القصرين والقاهرة[37]، فقيّده بإحسانه، إذ يقول[38]:

ولو لم يقيّدني نداكَ لكانَ لــي
مجالٌ فسيحٌ في البسيطةِ واسِعُ
فأنتَ الذي لي والأعادي كثيرةٌ
فُوَيقَ مكانِ النّجمِ والأفقِ دافِعُ

وقد بالغ الشّعراء في مدح الملوك، ربما لرغبتهم الشديدة في أن يولوهم رعاية خاصّة، وهم الغرباء الذين يطلبون العون والاحتواء من قبل ذوي الشّأن، من ذلك ما يقوله ابن خروف القرطبي(ت 610هـ/1213م) في مدح الملك الظاهر غازي ابن صلاح الدّين، مادحاً من خلاله الأيوبيّين[39]:

شمسُ الهــدايةِ في أبنـــاء أيّوبِ
أختُ النبوّةِ في أبنــاءِ يعقـــوبِ
هم الملائِكُ في زيِّ الملوكِ وهُم
أسْدُ الحروبِ وأقطابُ المحاريبِ

كما اتّصل الشعراء بالوزراء والقضاة، ممتدحين ما أولوهم إياه من رعاية وأمن، وهو أحوج ما يكونون إليه في غربتهم، من ذلك مايقوله الشاعر أبو عبدالله الغماري من شعراء القرن السابع الهجري/الثالث عشر الميلادي في مدح الوزير أبي نصر الشّيباني بحلب[40]:

وليسَ لي منكَ حِميً إلاّ حِمـــى المؤيَّـد
فقالَ لي كُن آمِنـــاً وابشِر بنيلِ المقصَدِ
إنَّ المؤيَّـــدَ الذي استنجدت خيرَ مُنْجِدِ
أعزّهم جاراً وأوفاهم بحسن الموعدِ
دامت له النّعمةُ والسَّعدُ دوام الأَبَـدِ

وقد يظهر المرتحلون التّذلّل والضّعف في استجارتهم بذوي الشّأن، من ذلك ما يمدح به الشّاعر المرتحل يحيى بن غانم (ت ق7هـ/13م)، قاضي حلب كمال الدّين بن أبي جرادة المعروف بابن العديم[41]:

وتركتُ للشّوقِ الدّيارَ وأهلَها وقَصدتُ منتجعاً كمالَ الدّينِ
العالِمَ الصّدرَ الذي بفنائِهِ مأوى الغريبِ وراحةُ المسكينِ
طلقَ المحيَا سيّداً متواضعاً بادي السّكينةِ شامِخَ العِرنينِ

ثمّ يدعو له أن يُوقّي أسباب الفراق، حتّى لا يعاني ما عاناه هو من آلام الفراق:

وقّيتَ أسبابَ الفـراقِ ودمـتَ في
دَعَـــةٍ ولا حُمّلتَ مثـلَ شجوني
وبقيتَ في حَلَبٍ على رُغمِ العِدا
في كلِّ خَطْبٍ مُنْجِدي ومُعيني

لقد كانت تجمع المرتحلين بكبار رجال الدّولة علاقات تقوم في معظمها على التكسّب والاستعطاف وطلب الحماية، ولعلّ الأحوال التي عايشها المرتحلون في الوطن الجديد –والتي لم تخلُ من المضايقات – والشّعور بألم الغربة والحاجة إلى العون والأمن ممن هم في موقع الأمر والنّهي – أدت إلى مثل هذا اللون من الاستعطاف، وتوجيه معظم شعرهم هذه الوجهة.

وقد حرص الأندلسيّون على أن يعطوا أفضل انطباع عنهم في ديار الغربة، وهذا شأن الغريب في غير وطنه ، لقد كانوا أفراداً فاعلين في المجالات كافة، من خلال دورهم في الحياة العلميّة والحضاريّة، ومن خلال وظائفهم في البيمارستانات والحمّامات والمرافق الأخرى، وزادت هذه الغربة كما رأينا، من حرصهم على التقرّب من ذوي الشّأن، واشتملت وصيّة موسى بن سعيد (ت640هـ/1242م) المغربي لابنه علي بن موسى بن سعيد (ت 685هـ/1286م)على معظم هذه الجوانب، فكانت أبياته إماماً ودليلاً في ديار الغربة، إذ يقول[42]:

أودِعُكَ الرّحمـنَ في غربتِك مرتقِباً رحماهُ في أوبتِكْ
فليسَ يُدرى أصلُ ذي غربةٍ وإنّما تُعـرَفُ من شيمَتِكْ
وكلُّ ما يُفضي لِعذرٍ فـلا تجعَلْهُ في الغُربةِ من إربَتِكْ
ولا تُجادِلْ أَبَـداً حاسِـداً فإنّهُ أدعى إلى هيبَتِـكْ

ثمَّ ينصحه بالتقرب إلى ذوي الشّأن من رجال الدّولة، مفسّراً ذلك:

ولا تكُـن تحقِـرُ ذا رتبةٍ
فإنّهُ أنفَـعُ فـي غربتِـكْ
وحيثما خيّمتَ فاقصِد إلى
صحبةِ من ترجوهُ في نُصرَتِكْ

ويقول آخر[43]:

يُعَدُّ رفيعَ القومِ من كانَ عاقِلاً
وإن لم يكُن في قومِهِ بِحسيبِ
إذا حلَّ أرضاً عاشَ فيها بعقلِهِ
وما عاقِلٌ في بلـــدةٍ بغَريبِ

لكن، هل كانت رجاحة العقل وحسن الخلق مخرجا للتغلب على الصّعوبات التي واجهتهم ؟ وهل وجدوا في البيئة الجديدة سلوتهم وأنسهم ؟

لقد ربط الشعراء المرتحلون الغربة بصور مشؤومة كالغراب والذّئاب، أو بما يدلّ على الرّحيلِ كالجمل، وذلك نابع من قلقهم وشعورهم بالوحدة والوحشة والخوف الدّائم من الفراق، يقول ابن عتبة الإشبيلي (ت 636هـ/1238م)[44]:

أمّا الغُرابُ فإنَّهُ سَبَبُ النّووى لا رَيبَ فيهِ وللنّوى أسبـــابُ
يدعو الغُرابُ وبعدَ ذاكَ يجيبُهُ جَمَلٌ وتعوي بعد ذاك ذِئابُ

وينذر صوت الغراب بفراقٍ وشيك، عندها ينقطعُ الرّجاء من التّواصل والعودة، لما في الغراب وصوته من طيرة وشؤم، يقول ابن سعيد [45]:

إذا ما غرابُ البينِ صاحَ فقـــل لَـــهُ:
ترفّق رماكَ اللهُ يا طيـــرُ بالبعدِ
تَصيحُ بِنَـــوحٍ ثـــمَّ تعثُـــرُ ماشِيـــاً
وتبرُزُ في ثوبٍ من الحزنِ مسوَدِّ
متى صِحْتَ صحَّ البينُ وانقَطَعَ الرَجا
كأنّكَ من وشكِ الفراقِ على وَعْدِ

ويشكو الصّحاب المنافقين الذين فضّل الغربة على مصاحبتهم، فهم داء دفين، وذئاب تخفي حقدها بألسنةٍ معسولة، فغدت غربته غربتين، غربة البعد عن الوطن، وغربة العالم المتأدّب بين جهّال، يقول[46]:

صِحابٌ همُ الدّاءُ الدّفينُ فليتَني
ولم أدنُ منهُم للذّئابِ صَحوبُ
كلامُهُـمُ شهـــدٌ ولكـــنَّ فِعلَهُمْ
كسُمٍّ لهُ بينَ الضّـــلوعِ دَبيبُ
سأرحلُ عنهُم والتّجارِبُ لم تَدَع
بقلبي لهـــم شيئاً عليهِ أُثيبُ
إذا اغتَرَبَ الإنسانُ عمّن يسوؤُهُ
فماهُهَ في الإبعادِ عنهُ غَريبُ
فيا ليتَ أنّي لم أَكُن مُتَأدِّبـــاً
ولم يكُ لي أصْلٌ هناكَ رَسوبُ

وقد صوّر الأندلسيّون معاناتهم، وما يلاقونه من صعوبات الغربة التي تصل حدّ التأزّم والألـم، ويزيد من هذا القلق ما قد يلاقونه من سوء المعاملة التي يقابل بها الأندلسيّون في مصر كما يصوّرون ذلك، وهو ما أشار إليه العديد من المرتحلين، من ذلك ما أورده ابن جبير من معاملة أهل الإسكندرية للحجاج المغاربة وتفتيشهم، وإدخال الأيدي في أوساطهم بحثاً عمّا فيها[47]، وقد نقل العبدري في رحلته بعض ما شاهده أو سمعه عن غلظة أهل القاهرة في معاملتهم للغرباء من المغاربة، وتشبيهه أهل القاهرة "بجسم لا روح فيه" وإن كان العبدري متطرّفاً في نقمته على المصريّين، إلاّ أنَّ ذلك يدلّ على عدم رضا المغاربة بصورة عامة عن أهل مصر ومعاملتهم[48]، وذلك لاينفي وجود بعض الصّور المشرقة لتعامل المصريّين مع المغاربة، من ذلك ما نقله التّجيبي (ت 730هـ/1329م) في رحلته عن حسن معاملة الحجّاج[49].

ويبدو عدم رضا الأندلسيين عن بعض المدن التي ارتحلوا إليها، فالفسطاط كما صوّرها ابن سعيد في القرن السّابع الهجري ضيّقة الأسواق، غير مستقيمة الشّوارع، مغبرّة الآفاق. والقاهرة لا تقلّ عنها في شدّة الزّحام، وسوء التنظيم، ورعاعة سلوك النّاس والتهامهم الطّعام في الأسواق غير محتشمين[50]. ويضيف أنّه يسير في طرقات مصر فيجد كلّ ما يراه غريباً، يتمعّن في وجوه النّاس فلا يجدها مألوفة، بل تزيد من غربته وشعوره بالضّياع والوحشة التي تلفّ الألحاظ، يقول [51]:

أصبحتُ أعترضُ الوجوهَ ولا أرى
مـــا بينَها وجهـــاً لمـــن أدريهِ
عَوْدي على بَدئي ضـــلالاً بينَهُمْ
حتّى كأنّـــي من بقـــايا النّيهِ

وتتبدّى له عندها صورة إشبيلية التي يشتدّ تحسّره وبكاؤه على فراقها، يقول[52]:

هذهِ مصرُ فأينَ المغـــــرِبُ
مُذ نأى عنّي دُموعي تَسكُبُ
أينَ حمصٌ ؟أينَ أيّامي بها؟
بعدها لم أَلْقَ شيئاً يُعجِـــبُ

ويصف ابن سعيد اضطراره ركوبَ الحمار من بابِ زويلة في القاهرة إلى الفسطاط، ينقل هذا المشهد بصورة كاريكاتورية ساخرة، مثيرة للضحك والألم في آن واحد[53]:

لقيتُ بمصرَ أشدَّ البَـــوار رُكوبَ الحِمارِ وكُحْلَ الغُبارْ
وخلفي مُكارٍ يفوقُ الرّياحَ لا يعرِفُ الرّفقَ مهما استَطارْ
أُناديهِ مَهلاً فـلا يرعـــوي إلى أَن سَجَدتُ سُجودَ العِثارْ

وممّا يقلق الأندلسيّين في ديار الغربة فقدان مكانتهم التي كانوا يتمتعون بها في وطنهم، في حين نبه ذكر خاملي الذّهن في مصر، ونالوا مالا يستحقّون، بينما كان الأندلسيّون أولى بهذه المكانة، لاسيّما في علم النّحو، كما يقول أثير الدّين أبو حيّان (ت 745هـ/1344م)[54]:

لقد أُخِّرَ التّصديرُ عن مستحقِّهِ وقُدِّمَ غَمرٌ خامِدُ الذّكرِ هامِدُه
عَلا عقلَهُ فيهِم هواهُ فمـــا دَرى بأنَّ هوى الإنسانِ للنّاسِ قايِدُه

ولا يخلو هذا الرأي من تعصّبٍ واضحٍ للأندلسيّين، فالمشارقة هم الأصل في وضعِ قواعِدِ هذا العلم، وقد أبرز في بداية القصيدة دور الخليل وسيبويه وغيرهم، فكيف يرى أنّ المغاربة أقدر على دراسته واستجلاء مسائله.

كما يظهر ابن سعيد شكواه من فقد مكانته في مصر، بعدما كان له حضوره في وطنه الأندلس، فهو كالأسد خارج العرين، وكالسّيف في يد الجبان، يقول[55]:

فإن كنتُ في أرضِ التّغرَبِ غارِباً
فسوفَ تراني طالِعاً فَوقَ غـارِبِ
فصمصامُ عمروٍ حين فارق كفّه
رَمَوهُ ولا ذَنبٌ– لعجزِ المضارِبِ
وما عِـــزّةُ الضّرغامِ إلاّ عـرينُـهُ
ومن مكّةٍ سادَت لؤيُّ بنُ غالِبِ

ومن الطّريف أنّ الشعراء قسّموا حروف كلمة (الغربة) وقالوا فيها شعراً، وجعلوا لكلّ حرفٍ منها معنى يشاكِلُ ما في نفوسِهم من أسى وغمّ وغبن وكلّها معانٍ تعبّر عن حالة قادمة من القلق وعدم الارتياح، ومن ذلك ما ورد عن عبدالله بن أحمد بن أبي بكر القرطبي (ت ق 7هـ/13م)[56]:

وحُروفُها من كلِّ بُؤسٍ رُكِّبَت لِتَعمَّ من تغشاهُ بالأَشجـانِ
فالغَينُ من غَمٍّ وغبنٍ دائِـمٍ والرّاءُ من رُزءٍ على الأوطانِ
والباءُ من بُرحٍ وبينٍ أو بلىً والهـــاءُ من همٍّ وهُلكٍ دانِ

وممّا يقلق الشّعراء كثيراً، ضياعُ أعمارهم في ديار الغربة بلا معنى ولا فائدة، وعدم تحقيق مطالبهم، فنجدهم يتمنّون عودة الماضي، يقول يحيى بن غانم من شعراء (القرن السابع الهجري /الثالث عشر الميلادي)[57]:

خليليّ مـا للـــــوالِهِ المتغـــــرِّبِ
بأَرضِكُما قد فـــاتهُ كـلُّ مَطْلَـــــبِ
خليليَّ قولا والحـــــديثُ كما حَـكَوا
شجوناً ودهري ساخِرٌ بكُما وبـــــي
هل الزّمن الماضي بما قد مضى بهِ
يَعُـــــد ولو من كـــلِّهِ بالتّقـــــرّبِ

لقد امتزجت الغربة بنفوس الشّعراء، فعبّروا عنها في كلّ مواقفهم، وجعلوها مسوّغاً لكلِّ ما يلاقونه من مصاعب في ديار الغربة، ورسموا لها صوراً صادقةً تعبّر عمّا في نفوسهم من الألم والأسى، وصلت حدّ المبالغة أحياناً، وهذا شأن الغريب.

الخاتمـــــة

لاحظنا في البحث ما حمله شعر الشعراء من ألفاظ ومعانٍ وصور تحمل كلها حالة شديدة من القلق والخوف، وكثرة الشكوى، والمبالغة في ذلك، ما يجعل مثل هذا الشّعر دليلاً على الإحساس بالهزيمة، والاستسلام لحالة الألم، والبحث عن المخرج المناسب، ومحاولة استجلاب عطف النّاس والملوك، وكثرة البكاء والتحسّر، وقد عبّرت عن ذلك الصور والألفاظ والتراكيب والإيقاعات، فالألفاظ والتركيب والصور لها دلالة خاصّة، وتقلبات نفوس الشعراء جعلت الصور والألفاظ والضمائر تحكي قلق النّفوس، ولعلّ نبرة الاعتداد الذي قد يصل حدّ الغرور أحياناً تجعلهم يرون كلّ شيْء خارج بلادهم الأندلس أقلّ شأناً، حتّى إنّهم أحسّوا بالتفوق على العلماء المشارقة والشعراء المشارقة، محاولة منهم لتجاوز الشعور بالهزيمة، والخلاص من الأزمة النفسية التي يعانونها ، وقد حملت الألفاظ والصور والتراكيب والقوافي والإيقاعات الموسيقية هذا التقلّب، وهذا القلق النفسي، فكان تعبير الشعراء يحمل صوراً صادقة، ولقطات تصوّر دواخل نفوسهم. ونجد خطاً مشتركاً يبدأ منذ السقوط الأول وحتّى نهاية السقوط، يحمل التداعيات في هذه الحسرات، وهذا القلق، على الرغم من أنّ هذه الفترات لم تخلُ من نهضات ومعارك حقق المسلمون فيها نصراً ساحقاً كما في موقعة الزلاّقة (479هـ/1086م) بقيادة يوسف بن تاشفين التي أخّرت سقوط الأندلس أكثر من أربعة قرون، لكن تلتها هزائم، أبرزها موقعة العقاب (609هـ/1212م)، التي تتابع بعدها سقوط المدن الأندلسية بصورة مطّردة، وكان معها الرحيل الذي خلق في نفوس الأندلسيين ردّة فعل خاصّة في التطرّف بالدّفاع عن وطنهم، واتخاذ مواقف وآراء تجاه المشارقة تقلّل من شأنهم، وتجعلهم غير راضين، عن معظم ما يشاهدون، وإيراد مقارنات غير منصفة أحياناً، فيها اضطراب وقلق ومبالغات، حملتها معانيهم، وألفاظهم، وأخيلتهم، وصورهم.

الهوامش

(1) عنان، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (دولة الإسلام في العصر الرّابع)، ط2، ص 16.
(2) انظر عن هذه المدن وسقوطها، الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، ط 2، الصفحات، 513، 518، 567، 6، 121، 53، 337، 231–332، 511، 67، 462، 347، 63، 342، 395، 395، 340.
(3) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ط2، ص419.
(4) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 322.
(5) أشباخ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحّدين، ص430
(6) المصدر نفسه، ص433.
(7) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، ج3، ص 323.
(8) الزركشي، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصيّة، ص27.
(9) أشباخ، تاريخ الأندلس، ص424.
(10) ضياء باشا، الأندلس الذاهبة، ج3، ص83.
(11) عنان، عصر المرابطين والموحّدين، ج2، ص126.
(12) الروض المعطار، ص 90.
(13) المقّري، نفح الطَيب من غصن الأندلس الرطيب، ج 4، ص 352.
(14) عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، ط5، ص183.
(15) نفح الطيب، ج4، ص 253.
(16) ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 22.
(17) المصدر السابق نفسه.
(18) حامد، أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين، ص 177.
(19) ابن الخطيب، أعمال الأعلام (تاريخ إسبانية الإسلامية)، ط2، ص273.
(20) نفح الطيب، ج4، 479.
(21) الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، ص46.
(22) ابن الخطيب، أعمال الأعلام، 273.
(23) ابن الأبّار، ديوان ابن الأبّار، ص 369.
(24) المقري، نفح الطيب، ج 4، ص488.
(25) ابن خفاجة، الديوان، ص 354.
(26) أعمال الأعلام، ص274.
(27) المقري، نفح الطيب، ج 4،ص478.
(28) المصدر السابق، ج4، ص488.
(29) انظر الدّيوان، ص395–400.
(30) زكا وخسا: أي زوجاً وفرداً.
(31) ابن الأبّار، الحلة السّيراء، ج2، ص27.
(32) انظر القصيدة في نفح الطيب، ج4، ص 479–483.
(33) نفح الطيب، ج2، ص478.
(34) الديوان، ص 119.
(35) الرقب، شعر الجهاد في عصر الموحدين، ص 220.
(36) نفح الطيب، ج2، ص101.
(37) نفسه، 102/2
(38) نفسه.
(39) ابن سعيد، الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، ط2، ص 139.
(40) ابن الشعّار الموصلي، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكروفيلم)، رقم الشريط 1855، مكتبة الجامعة الأردنية، عمّان، ج7، ورقة 218.
(41) المصدر نفسه، ج 10، ورقة 21–22.
(42) نفح الطيب، ج2، ص353–354.
(43) المصدر نفسه، ج2، ص 355.
(44) نفسه، ج2، ص112.
(45) ابن سعيد المغربي، رايات المبرزين وغايات المميزين، ص 180.
(46) نفح الطيب، ج2، ص276–277.
(47) انظر: رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، 1959، ص13–14.
(48) انظر، رحلة العبدري المسمّاة "الرحلة المغربية"، ص 126–127، ص92–93.
(49) التّجيبي، مستفاد الرحلة والاغتراب، ص174–175.
(50) انظر: نفح الطيب، ج2، ص337–339.
(51) المصدر نفسه، ج2، ص 262.
(52) نفسه، ج2، ص281.
(53) نفسه، ج2، 340.
(54) ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة، ج4، ص 55–56.
(55) نفح الطيب، ج2، ص283.
(56) عقود الجمان، ج5، ورقة 228.
(57) المصدر نفسه، ج10، ورقة 20.

المصادر والمراجع

ابن الأبّار، أبو عبدالله محمد بن الأبّار القضاعي البلنسي (658هـ/1259م).

ديوان ابن الأبّار، قراءة وتعليق عبد السلام الهراس، 1985، الدار التونسيّة للنشر، تونس.

الحلة السّيراء، تحقيق حسين مؤنس، 1963، الشركة العربية للطباعة، القاهرة، ط1.

أشباخ، يوسف، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه ووضع حواشيه محمد عبدالله عنان، 1958، مؤسسة الخانجي، القاهرة، ط2، ص419.

التّجيبي، القاسم بن يوسف السّبتي (ت 730هـ/1329م)، مستفاد الرحلة والاغتراب، تحقيق عبد الحفيظ منصور، 1958، الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا وتونس والقاهرة، ط2.

ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد الكناني (ت 614هـ/1217م)، رحلة ابن جبير، دار صادر، 1959، بيروت.

الجرجاني، عبد القاهر بن عبدالرحمن (ت 471هـ/1078م)، دلائل الإعجاز في علم المعاني، تحقيق عبدالحميد هنداوي، 2001م، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان.

الحميري، محمد بن عبدالمنعم (ت 900هـ/1449م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، 1984، دار الكتاب اللبناني، بيروت ن ط2.

ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبدالله (776هـ/1374م)، الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق محمد عبدالله عنان، 1974، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1.

الرقب، شفيق محمد، 1984، شعر الجهاد في عصر الموحدين، مكتبة الأقصى، عمان، الأردن.

الزركشي، أبو عبدالله محمد بن إبراهيم (ت 932هـ/ 1525م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصيّة، تحقيق وتعليق محمد ماصور، 1966، المكتبة العتيقة، تونس.

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى بن سعيد المغربي (ت 685هـ/1286م)

- رايات المبرزين وغايات المميزين، تحقيق محمد رضوان الدّايه، 1987، دار طلاس، دمشق.
- الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، 1945، دار المعارف بمصر، ط2.
- المغرب في حلى المغرب، تحقيق، شوقي ضيف، 1953م، دار المعارف، مصر.

عباس، إحسان، 1978م، تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5.

ضياء باشا، 1989، الأندلس الذاهبة، تعريب عبد الرحمن إرشيدات، راجعه صلاح إرشيدات، وزارة الثقافة، عمّان، الأردن.

العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد (ت بعد 688هـ/ 1289م)، رحلة العبدري المسمّاة "الرحلة المغربية"، تحقيق محمد الفاسي، 1968، وزارة الدولة، الرباط.

ابن عذاري المراكشي، أبو عبدالله أحمد بن محمد (ت695هـ/1295م)، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، عني بنشره أمبروس مراندة بمساهمة من محمد بن تاويت، 1960، دار كريماديس للطباعة، تطوان، المغرب.

عنان، محمد عبدالله، 1958، نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين (دولة الإسلام في العصر الرّابع) مطبعة مصر، ط2.

كساب، حامد، أدب الجهاد في الأندلس في عصر المرابطين، ر.ج، كلية الآداب، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن، 1983م.

المراكشي، محيي الدين عبد الواحد (ت 647هـ/1249م)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، صححه وعلّق على حواشيه محمد سعيد العريان، ومحمد العربي العلمي، 1949، مطبعة الاستقامة، القاهرة.

المقّري، أحمد بن محمد التلمساني (ت 1041هـ/1631م)، نفح الطَيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، 1968، دار صادر، بيروت.

المصادر المخطوطة

ابن الشعّار الموصلي، المبارك بن أحمد (ت 654هـ/1256م)، عقود الجمان في شعراء هذا الزمان (ميكروفيلم)، رقم الشريط 1855، مكتبة الجامعة الأردنية، عمّان.

The Downfall of Andalusian Cities in The Andalusian Poetry

*Āmenah Suleiman Al Badawi**

ABSTRACT

Obviously, the downfall of Andalusian cities caused people a lot of apprehension, fear, anxiety and disturbance. This very downfall resulted in economic hardships and that's due to the high cost of living, plundering, and the lack of food to the extent that people were impelled to live corpses. Besides diseases spreaded everywhere. Consequently, there was an increase in the number of refugees and immigrants seeking for shelters , security and protection. Thus, "the waves" of the internal immigration increased particularly towards the Kingdom of Granada. It is noted also that the inhabitants of a certain city left it as soon as it fell down in the hand of the Spanish, and they were forced to move into another city if fallen down again, as if they were quitting Al-Andalus bit by bit and eventually forever.

This study, hereby, aims to investigating the psychological meanings like fear and apprehension which were haunted by the Andalusian people as portraited by the Andalusian poetry in two stages: the first is during the time of the city siege and then its downfall , and the second is after the time of quitting the city itself. It aims also to investigate the reflections of their internal psychological experiences on their behaviors in the new reigns they left to lived in.

Keywords: The Andalusian Cilties, The Downfall, The Immigration.

* Department of Arabic Language, Faculty of Arts, The University of Jordan. Received on 6/10/2011 and Accepted for Publication on 27/6/2012.